٢- رحلة إلى الحجاز

للشيخ مصطفى البكرى الصديقى
للأستاذ سامح الخالدى

ومن باب السلام لقد دخلنا وأهدينا السلام من السلام

ومنها هذا الفخر الرائع الذى يذكرنا بفخر ابن كلثوم. وغير مستغرب من لبيد أن يفخر وهو الشاعر الشريف ذو المجد الأثيل والحسب العريق، ومن الذين لم يكتسبوا بالشعر وهو الذى قال عنه صاحب الجمهرة (كان لبيد جوادا شريفا فى الإسلام والجاهلية » والتى قالت عنه عائشة رضى الله عنها : رحم الله لبيدا ما أشعره فى قوله

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب
لا ينفعون ولا يرجى خيرهم ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

فهذا شأن شاعر جواد شريف الا يحق أن يفخر فيقول من — المعلقة —

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
فبنوا لنا ملكا رفيعا سمكه فسما اليه كهلها وغلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة اذا العشيرة أفظعت وهم فوارسها وهم حكامها
وهو ربيع للمجاور فيهمو والمرملات اذا تطاول عامها

هذا ما عن لى ذكره ولا أريد أن أختم البحث دون أن أشير الى بيتيه الخالدين

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع
سلوهن ان كذبتمونى متى الفتى
يذود المنايا أو متى الغيب واقع

ولنا رجعة إن شاء الله الى هذا الشاعر حيث نأخذ شعره وحياته وأخباره بالتفصيل .

بغداد عبد الغفار رشيد الناصرى

وقفنا عند شباك نزبه ودمعى فى اشتباك وانسجام الخ

وتذكرت فى هذا المقام قول الإمام سيدى أحمد بن الرفاعى قدس الله سره:

فى حالة البعد روحى كنت أرسلها
تقبل الأرض عنى وهى نائبتى
وهذه دولة الأشباح قد حضرت
فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

« ثم صليت تحية المسجد لدى المنبر ، وتذكرت قصيدة من نفائس القصائد نقلتها من مجموع جامع ، وكان رآها شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم الدكدكجى ، فأخبرنى أن جناب شيخنا النبى(١) بربه ، سمع فى زيارته منشدا لها على سدة الحرم النبوى والمسجد ، فأجرت المدامع كالسحب الهوامع ، فطلبها ليثبتها فى رحلته الكبرى ، فلم يجب الطلب ، والقصيدة هى :

يا عين هذا السيد الأكبر وهذه الروضة والمنبر
فشاهدى فى حرم المصطفى من نوره الساطع ما يبهر

« وعطفنا بعد هيئة على زيارة بقيع الفرقد ، وصرنا بعد الزيارة والطواف على من حل فيه من أهل الإشارة ، نتردد على الحرم المنير ، وكانت ليلة دخولنا المدينة الثلاثاء وأقمنا الأربعاء والخميس ، وذلك الخامس والعشرون من ذى القعدة ، ولم يتيسر لى المبيت فى حرم التبيت إلا ليلة الحبور ، ولذا سميت بالخميس ، وبعد أن صليت العشا جلست فى الروضة الجنانية ، مواجها الحجرة الشريفة الأمانية ، وختمت كتاب الدلائل ، وصليت ما تيسر ، تقدمت إلى ما بين الأسطوانتين ، مستقبلا الوجه الأزهر ، ولم أتقدم إلى الشباك ، واستأذنت فى عرض (ورد السحر) على أسماعه الكريمة ، فأتممته وأنا بين يديه واقع ، وكنت إذ ذاك وحدى ، وتقدمت يسيرا لقبالة وجه جدنا الأعلى الصاحب فى الثار ، فعرضته عليه ، وواجهت وجه سيدى عمر بن الخطاب وكررته على أسماعه . ثم أتيت باب جبريل ، وأعدته ، ثم بيت الزهراء أتيت ، وبالباب صافرا وقفت وقرأته راجيا بشفاعة

(١) هو الشيخ عبد الغنى النابلسى ، أستاذ الشيخ البكرى ، القطب المتصوف الرحالة

السيدة الفاخرة فاطمة ، وفى الحديث الذى رواه الديلمى عن أبى هريرة عن المختار»: إنما سميت فاطمة ، لأن الله فطمها ومحبيها عن النار » وجعلت هذه التلاوة الجامعة ، وقبيل الإتمام أذن المؤذن الفجر ، فأسرعت وشرعت فيه منتظما للأجر ، وقد ذكرت فى أوائل شرح هذا الورد السمى بالضيا الشمسى على الفتح القدسى بعض ما وقع لنا ولإخواننا فى التلاوة وغيرها مما يبشر نفوس الملازمين عليه بحسن سيرها.. وعدنا للخيام، والعين عن هذا السير نيام ، وكررنا الود لأحمد الخلق أحمد ، وهو كما قيل للمحمود أحمد

« ولما دخلت ليلة المروبة بت فى الحرم أيضا ، راج كما عودت فيضا ، وبعد صلاة العشا ، غلب وارد النوم. ثم كريت فى الصباح، على زيارة أهل البقيع الصباح ، وبعد صلاة الجمعة عزمنا على المسير فودعنا حجرة من أودعنا القلوب لديه ، ولو استقصينا ما ورد فى فضل المدينة ومسجدها وروضة البقيع ورقعته ، ومساجدها الرفيعة ، ومعابدها المنيعة ، وجبالها المرغوبة، وأوديتها المحبوبة ، لا تسع المجال والوارد ، فى هذه المصادر والموارد ، وقد أفصح بعض إفصاح ، الحافظ أبو عبد الله محمد النجار صاحب (الزواهر والجواهر الثمينة، فى كتابه « النزهة الثمينة فى أخبار المدينة»

وكم رمت مدحا فى الجناب المحمدى
فما طاوعتنى من مهابته يدى
وكريت بالمـــداح فى الذات أقتدى
لعلى أن أنجـــو بذلك فى غد

ورحم الله أحمد بن محمد من أهل غرناطة ، حيث يقول :

أروم امتـــداح المصطفى فيردنى
قصورى عن إدراك تلك المناقب
ولو أن كل العالمين تألفوا
على مدحه لم يبلغوا بعض واجب
فأمسكت منـــه هيبة وتواضعا
وخوفا وإعظاما لأوفـــع جانب
ورب سكوت كان فيـــه بلاغة
ورب كلام فيـــه عتب لعاتب

« وكنت وأنا فى الخفة ، المثقلة بثقلاتى ، فهى غير مخفة، أتسلى ببعض كتابات فى مدح سيد الأكوان

وبعد أن ودعنا أماكن نورها نابغ ، وصلنا منزل (رابغ) وأحرمت بالحج ، وسبقنا الحج المصرى إلى بدر ، وابتدرنا المسير بعدهم بيسير أى بدر ، وأهديت شهداءها الفواتح ، وسرنا إلى وادى فاطمة ، ولم نشعر إلا وقد أشرق النور ، وقد أتينا البيت العتيق نزور . وكان نهار يوم الأربعاء ، والمبيت (بمزدلفة) ليلة الخميس. ولما أتينا (منى) رمينا الجمرة الأولى ، ثم ذبحنا وقربنا وحلقنا الشعور ، واجتمعنا ثانى يوم عندرى الجمرة الثانية بالصديق الأوحد السيد محمد بن السيد أحمد الشافلاتى (مفتى الحنفية بالقدس) فلما رأيته طرت به فرحا ، وسرت به إلى الخيمة منشرحا ، وأقام هينة وسار ، ولم أبالم من الجمعة به الأوطار . وبعد ما رمينا الجمرة الثالثة ، سرنا بعيـــون فياضة ، وأدينا واجب طواف الإفاضة ، واجتمعنا ثانى يوم القدوم بالسيد المذكور الملوم ، فى الحرم تجاه البيت ، وعرضت عليه قصيدتين كتبتهما فى ذلك المجلس فى كتابين وأرسلتهما لبيت المقدس ، ليقف عليهما أرباب اقتراب نفيس، فتحظ بهما ، وسألته أن يرفقنى إلى القاهرة لأنشق عرف مآثره الفاخرة ، فأبدى أعذاراً فلم تقبل ذلك منه نفسى ، لأنها قاسته عليها كما قسته بأبناء جنسى ، وإذا الأمر بخلاف هذا المفهوم ، لما تحققت وشاهدت فى بلاد الروم

« وكنت أجلس فى المقام الحنفى وأتملى بأنوار البيت الشريف الوفى ، وكنت أتردد على الحرم أوقات الصلاة ، متى سمعت المؤذن حيعل ولسلم حجازا بادرت مجيبا ، إذ نغمة أهل تلك الأماكن نغمة مترقبة تحرك من الحب السواكن ، وما أحلى همهمة الزمزمى إذ يدمدم بتلك الزمزمة ، وكان أول من وضعها من جدودهم وبقيت فى القرية

« وقد بت ليلة فى خلوة قريبة من الحرم ، فأيقظنى رفيق برفق وقال : قم فإن البيت فتح للأمير الشامى الكبير ، فبادرت للطهارة لألحق الدخول ، فقفل الباب ، فبكت النفس عليه لا على حومل والدخول ، ثم سليتها ومنيتها ليذهب الحزن عنها ، بأن بعض الحجر من غير شك منها ، فدخلته والتزمت البيت التزاما ، ووقفت تحت الميزاب أجرى الدموع انسجاما

« وقد أردت العمرة ؛ فلمعنى من الذنوب الغمرة ، وتوجهت

مع صويحب لى لزيارة سيد سمي جعفرا ، فرأيت صدرا رحيبا ودرا مصيبا ، ولم أجتمع بالشيخ محمد عقيلة ، الدرة العقيلة ، لأن الاجتماع العيني الجسمي ، تابع للتعارف الغيبي العلمي الاسمي ، والسيد جعفر المذكور ، له قدم صدق مذكور مشكور . وقد بشر بحصول الألطاف وحباني بعد ما حباني عطفة بعد عطفة ، ودعا دعاء يملأ الإناء ، وودعته منصرفا ، وبفضله مغترفا ومنه مغترفا

« وفى ثاني يوم ودعنا البيت الشريف المعمود ، ونزلنا مع رفاقنا الكرام (فى الشيخ محمود) ولما طفت طواف الوداع ، طفت الدموع ولها على الخدود اندفاع . وقلت :

طفت الدموع على الخدود سراعا لما فتحت من الوداع شراعا الخ

« ولما حللت تلك الدار المرتقى التى شموسها مشرقة ، وطموسها حارقة للنفوس وللحجب خارقة ؛ بادرت إلى الزيارة الجامعة لكل بارقة ، اللامعة أضواؤها بكل طارقة ، وعند الوصول إلى الوصول المأمول فى السابقة واللاحقة ، جرت خيول سيول دموع دافقة . ولما سكن القلب أنشد :

سكن الفؤاد فعش هنيا يا جسد هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد الخ

وفى ثانى يوم ، عمت فى بحر الزيارة البقيعية أى عوم ؛ وبت فى الليلة الثالثة من القدوم فى الحرم

الأمير يعمل مولداً ويغرق الدنانير :

وكان الأمير (أى أمير الحاج رجب باشا) عمل مولدا بين العشائين ، وبت فى الخدم دنانير الكرم

وكان يتردد على أحيانا صديقنا الواعى ، سيما عند الطواف بالبيت الجليل الساعى ، الشيخ محمد البقاعى ، حياه الله البواعث والدواعى ؛ فقلت فى سرى ولم يشعر بما فيه زرى ؛ مخاطبا السيد الأعظم ذى الكوكب الدرى ، يا سيدى إن كان لمحمد فى أخذ الطريق خيره بها لا يدرى ، فسقه الآن وحرك سره وأثلج للعطاء صدره ، فرأيته قام من مجلسه وأمنى ، وجلس بين يدى وصافحنى ، وطلب أخذ العهد ، ولم يكن له بذلك من مهد ، فأمرته أن يجدد الطهارة ويأتى قبالة الشباك الرفيع ، ويستغفر مئة مرة ويصلى ويسلم كثلها على خير شفيع ، ثم يستأذن فيما إليه قصد ، وينظر ما الذى يرد على قلبه بعد ما للوارد رصد ، فعاد وأسرة وجهه تبرق وقال وقد انشرح صدرى ، ما حبته ولم أطرق وبات عندى ، وأكات فى ليلة عيدى قندى ، ولم أقم من مناى ، إلا قبيل الفجر لقاق طفح به جاى ؛ ومذ تذكرت الفراق الذى يتحصن منه بألف راق ، طار لبي وطاش عقلى واندهش الفؤاد ، الجامع من وديان الحب على ألف واد ، وأذهب التذكار للبعد السرور والحبور والفرح ، ورأيت ثقله على قلب الشغوف يفوق ألف رحى ، واستوحشت لنزل قرب ألفنا به ، ما يعجز عن حصره وعده ألف نابه ، وقلت وقد عضنا البعاد بنابه ، ليت ما حل بنابه :

يا سادة قلب المشوق أراعوا وداعهم والسر منه أذاعوا الخ

« وقد نص الخواص ومنهم الخواص أن خلع القبول ، لا تخلع على الحاج إلا عند الرسول ، ليزداد منه السرور ، بقبول السعى المشكور ، ولا بد للزائر من إكرام ، وهذه الخلعة نهاية الإنعام . وفضل الزيارة ، أحاديثة أنجم سيارة ، وفى بعضها : « ومن لم يزرنى .. وفى أخرى يزر قبرى فقد جفانى » فحق على وإن كنت المتوانى أن أسعى على أجفانى

« وذكر بعض أهل الكشف الربانى ، أن المجاورة فى المدينة لا يقدر عليها إلا الأقوياء من كل دانى ، لفرط ظهور النور المحمدى ، فى ذلك المقام الأوحدى ، وما أحق بيت أبى الطيب ، أن ينشد عند فراق أبى الطيب :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شئ بعدكم عدم

وقوله :

لولا مفارقة الأخيار ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

وقصيدة السباق فى ميدان السباق ، سيدى محمد البكرى ، ومطلعها :

يا رائحاً نحو الحجاز ميمماً يطوى الفلا بنجائب ونياق

ليلة الختام

وفى الليلة الرابعة بت فى الخيام ، وكانت تلك الليلة ليلة الختام ، فأيقظت سحرا ابن عمى ، وجئت معه للحرم مودعا فزال غمى ، وقرأت ورد السحر كما فعلت فى المرة الأولى ، وتقدمت

بعده لمواجهة الشيخين راج أن أمنح سولا . ودعوت بما أجراه قلم التقدير ، على لسان الفقير ، وقبل إتمام المرة الثانية صاح صائح الفجر، بمد ما لاح لائح الأجر ، فركمناه جماعة ، ثم سرنا بعد ساعة، للبقيم ، وقد هالنا الوداع الفظيم ، ثم عدنا للخيمة المظلة، ولم تطف غلة الفراق المطلة

هم الخيامم

ثم لما هدت الخيام ، وعزم الحج على السير ، دون قيام ، أسرعت لتوديع المقام ، وأطلت الإقامة حتى كاد أن تفوتني الرفاق الكرام ، وتذكرت قول شيخنا المقدام الشيخ عبد الغني (النابلسي) :

يا نبي الهدى إليك اعتذاري ... إنني من هواك في الأرض سائح
لم يطب غير طيبة لفؤادي ... أنا منها أشم طيب الروائح
كيف تبرى جراحتي في بلاد ... حبيبي ثراها المسك فائح

اجتماع برجل مصري صالح

وكنت اجتمعت في الروضة الشريفة الماعة ، يوم العروبة ونحن منتظرون صلاة الجمعة الجماعة ، برجل مصري عليه هيئة العز، وهيبة الصحا أهل العز ، فسألني عن الاسم والبلد، والأهل والوطن والولد ، فأجبته وسألته عن مدة الإقامة ، في جوار صاحب العمامة ، والغمامة ، فأخبر أنها عد جيب فهي هي ، وصيب الحب يبتدي فلا ينتهي . فضبطته ، وسألته أن لا ينساني. وكنا صلينا الجمعة ونحن متوجهون للحرم المكي ، والخطيب في الكرتين واحد . وكنت أسمع خطيبنا يقول « يا معشر زوار الرسول » إذ يقول خطيبهم مظهرا بقوله استلذاذا، قال نبيكم هذا، فلم أسمع هذه المقالة من الخطيب ، ثم رجعت مفكرا من السبب فإذا هو معيب ، فإن الحاضر وإن أشير إليه بهذا لكن يحل مقام تخاطب الإعلام عن هذا ، ألا ترى أننا لا نرى حسنا قولنا في حضرة سلطاننا قال ملكنا هذا ، وربما لو سمعناه من غيرنا نقول هذا هذا ، ونحمل حال من قال، على مقام الإدلال

« ولما جرى في وادي العقيق ، عقيق الدمع العقيق ، وخلفت جباله خلفي ، جعلت الدوم خلفي ، ولم نزل نحمي الكف ، بدمع قاني من وكفه ما انسكف ، إلى أن وصلنا (الملا) ، وخاف الحاج من هدم وجدان الجردة الفلا ، وأمسينا نضرب حيرة لا خديمة أخاسا للأسداس ، وقد وفد علينا جيش الوسواس ، فبذا نحن في وهم والتباس، وقد التقى البطان والحقب معا من الباس ، إذ سمعنا صوت كاس ، فتباشر الناس ، وهاجوا وماجوا وأخذوا بأيمانهم أكواب إيناس ، ولما تحققوا بقدوم أكياس ، تقتبس منهم نبراس أخبار نفاس، من أهل وأوطان فتراجع إحساس ، واجتمع كل ناس بناس ، وزالت الوحشة ووقع البسط بلا قساطس ، وجئنا قلعة (تبوك) وثوب الصفا محبوك

في محطة الحسا ، سقوط الأمطار ، واضطراب الناس

« وما برحنا نقطع السباسب والقفار بدون أسا ، حتى وصلنا لمحطة (الحسا) فلما مررنا منها سح السحاب، واضطرب الناس أي اضطراب ، وحصل نقص في الجمال ، لموجب الفسخ من الأوحال ، وسقط كثير أحمال ؛ وكان يوما عبوسا ، لكن كفانا مولانا منه بوسا ، وحفت بنا ألطاف مددها وافى ، بسبب ذكر اللطيف والحفيظ والكافي . ودخلنا الشام في صحة وإنعام ، في السابع والعشرين من محرم الحرام ، عام (١١٣١ هـ) أحسن الله منها الختام

سامح الخالدي